

في معنى مركزية القضية الفلسطينية

ساري عراي، فلسطين

استحقت فلسطين موقعها المركزي لتكون القضية الجامعة للعرب، بما في ذلك خطابهم الرسمي، وبقطع النظر عن النوايا المتباينة للأنظمة العربية في تبنيها الخطابي لفلسطين قضية مركزية في مراحل ماضية، جرّاء الظرف المؤسس للقضية الفلسطينية. فالاستعمار الصهيوني لفلسطين وقع عليها وهي أرض عربية، في السياق نفسه الناجم عن الحرب العالمية الأولى، وخسارة الدولة العثمانية لها، لتقع ولاياتها في المشرق العربي تحت الاستعمارين الفرنسي والبريطاني، وبالنحو الذي أسس لإقامة "إسرائيل"، وهندس المنطقة العربية بما يخدم جملة أهداف استعمارية سياسية واقتصادية في حينه، وأخرى استراتيجية تنزع بها من هذه المنطقة إمكان النهوض والتكامل السياسي والاقتصادي، وتؤبّد تبعيتها للغرب. لقد كان ذلك كله قبل تبلور الهويات الوطنية الجديدة على أساس التقسيم الاستعماري، وهو ما حتم أن تبقى فلسطين قضية جامعة للعرب، وإن كان التناقض حاصلاً بين القضية الفلسطينية وبين الهويات العربية الناشئة المتجسدة في الدول التي تأسست في الظرف نفسه الذي أقيم فيه الكيان الصهيوني، في مفارقة تاريخية حكمت عملياً الموقع الفعلي لموقع القضية الفلسطينية في السياسات العربية. وقد ظهر ذلك في كيفيات التعامل مع اللجوء الفلسطيني إلى هذه الدول، وفي الموقف من المقاومة الفلسطينية، إذ كان دعم المقاومة الفلسطينية متعارضاً مع سياسات الحكم وتوجهات تثبيته في هذه الدول.

بيد أن هذا التعارض الواقعي، الناشئ من حالة واحدة وهي الهندسة الاستعمارية للمنطقة، أعاد دمج القضية الفلسطينية في خطاب ثوري عربي واحد، امتدّ حتى نهاية حقبة السبعينيات من القرن الماضي، وذلك بتضمين القضية الفلسطينية في المسألة الثورية العربية، في إطار الأسئلة الممتدة عن تلك اللحظة التأسيسية، من قبيل علاقة العرب بعضهم البعض الآخر. فهل يمكن التحقق في حالة قومية واحدة وتشديد التكامل العربي دون حل القضية الفلسطينية؟ وليس بعيداً عن ذلك برزت الأسئلة التنموية، والتحررية، حتى في إطار الهويات الوطنية الضيقة، الأمر الذي فرض "إسرائيل" مشكلة عربية، تكررت في هزيمتي العامين 1948 و1967، وهي الهزائم التي حتمت بأن تبقى فلسطين قضية عربية، لأنها صارت ضحية هزائم عربية. طرحت هذه الهزائم السؤال الذي ألحّ على المجال السياسي والثقافي العربي فيه حينه، وهو "لماذا هزموننا؟" وبالرغم من التباين في الإجابة على هذا السؤال، سواء إجابات ثقافية أو مادية أو سياسية، وما نجم عن هذا السؤال من تحولات سياسية واجتماعية وثقافية بعد كل هزيمة، وصعود تيارات جديدة تحاول أن تجيب على هذا السؤال، كالصعود اليساري والقومي بعد هزيمة العام 1948، والصعود الإسلامي بعد هزيمة العام 1967... فإن فلسطين كانت قلب هذه السجلات والتحوّلات كلها.

لم تكن فلسطين قضية مركزية للعرب، والحالة هذه، بسبب الاستخدام التوظيفي لأغراض سياسية داخلية من الأنظمة العربية، بشقيها، بحسب تصنيف الحقبة الناصرية، التقدمية والرجعية، فحسب، كما صارت المحاولة للقول والترويج لاحقاً بعد "ثورات الربيع العربي". عندئذٍ، جُعِلت فلسطين في موقع النقيض لأحلام الجماهير العربية وطموحاتها في تلك البلاد، بعد أن كانت طوال العقود التالية للاستعمار الصهيوني لفلسطين في موقع الكاشف لأسباب التردّي العربي والمتداخل عضواً مع المشكلات العربية الذاتية والخاصة بالبلدان العربية. وقد كشف ذلك عن حجم مغالطات التضليل في الدعايات العربية الجديدة لا لتسوية التخلي عن القضية الفلسطينية فحسب، ولكن أيضاً لتبرير التحالف مع "إسرائيل" بما يتجاوز مفهوم التطبيع الذي كان مُجرّماً في السياسات العربية الرسمية لعقود طويلة بعد الواقعة الاستعمارية الصهيونية، بل كانت فلسطين قضية مركزية بحكم طبيعة الأشياء وحتميات الظرف التاريخي الذي تولّدت فيه.

صحيح أن سياسات التخلي العربي الرسمية عن فلسطين أخذت مداها الزمني الطويل، منذ هزيمة العام 1967، وما تلا ذلك من أحداث كبيرة، من أهمها الأحداث الأردنية في سبعينيات القرن الماضي، والحرب الأهلية اللبنانية وكيفيات الدخول السوري عليها، والخروج من بيروت في العام 1982، وخروج مصر من الصراع العربي-الصهيوني بتوقيعها معاهدة السلام مع "إسرائيل"، والغزو العراقي للكويت ومآلاته، وانهيار الاتحاد السوفييتي وانحسار اليسار العالمي في نسخته الثورية. وقد انبنى على ذلك الدخول في مسار التسوية الذي جسّر بين "إسرائيل" والعرب، وأعاد تسكين "إسرائيل" في المنطقة وكأنها كائن طبيعي، وأعاد صياغة الموقف منها بوصفها كائناً "طبيعياً" و"أبدياً" في المنطقة. إلا أن السياسات العربية الرسمية المتخلفة عن فلسطين، تحوّلت نحو صياغات جديدة تهدف إلى عزل الجماهير العربية عن فلسطين تماماً، ابتداءً من شعارات الوطنية الضيقة التي أخذت صيغة "بلدي أولاً"، إلى خطابات شيطنة الفلسطينيين. تسأل هذا النهج ضمناً إلى نخب وفعاليات جماهيرية بعد "ثورات الربيع العربي"، وبنحو كان يصرف عن وعي الجماهير كون "إسرائيل" المشروع الأكثر خطورة وتدميراً للمنطقة. وقد ظهر، جزئاً ذلك، أن المشكلة لم تعد محصورة في السياسات الرسمية للأنظمة والحكومات العربية، ولكن هذه السياسات أثمرت نتائجها في الجماهير العربية، التي، ولاسيما بعد حرب الإبادة "الإسرائيلية" على غزة، لم تبدِ رغبة في القتال لأجل فلسطين. وفي طيأت هذا المسار الطويل، صنّع للجماهير العربية أعداء لا يقدمون فقط على العداء لـ "إسرائيل"، بل حرّبوهم بإلغاء العداء لـ "إسرائيل" كما هو الشأن في التضخيم المتعمّد لما يسمى "المشروع الإيراني"، وفي إذكاء الطائفية، والاستثمار المدمر للصراعات الأهلية.

لم يبلغ هذا كله كون فلسطين قضية مركزية، وإن كان أولاً من جهة معكوسة، ولكن على نحو من شأنه أن يعيدها إلى موقعها الصحيح. ففي حين تخلّت الأنظمة والحكومات العربية عن فلسطين والفلسطينيين، إلا أنها أعادت بناء سياساتها على التطبيع مع "إسرائيل" والتحالف معها، لاسيما بعد سحق "ثورات الربيع العربي"، والكشف عن جهد مشترك عربي-"إسرائيلي" تخادمي، يسيّد "إسرائيل" في المنطقة ويثبت الأنظمة العربية، خاصة تلك التي ظهرت في طبعات جديدة في منطقة الخليج، ما ينبغي أن يحيي من جديد قضية استكمال التحرر العربي من التبعية. لقد صارت الأثمان التي تقدّمها هذه الأنظمة العربية تُدفع لصالح "إسرائيل" من الكيس الفلسطيني،

لاستجلاب مصالح ضيقة، محصورة في اللحظة الراهنة، لصالح الأنظمة الحاكمة، دون أن تتوفّر على أي مصالح إستراتيجية بعيدة المدى لهذه الدولة العربية أو تلك.

جاءت عملية 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، وما تبعها من إبادة جماعية "إسرائيلية" على غزة، كاشفة عن حقائق سعت الأنظمة العربية إلى طمسها وتجاوزها، وأولها إمكان هزيمة "إسرائيل" كما بينت تلك العملية. هذا الإمكان أظهر من جديد التناقض بين الوطنيات العربية المتجسّدة في الدول القائمة بأنظمتها الحاكمة والمقاومة الفلسطينية، إذ أظهرت الحكومات العربية في مواقفها المتراوحة بين التخاذل والتواطؤ والعجز وعياً بتناقض انتصار فلسطين مع مصالحها. ولذا، فقد أدّى ذلك إلى عودة طرح السؤال عن المعنى العربي، ما يجعل الوجود "الإسرائيلي" يتجاوز الإبادة المادية والسياسية للفلسطينيين إلى الإبادة المعنوية للعرب، إذ ما معنى وجود العرب؟ وما هي الإضافة التي يقدمونها للبشرية؟ وماذا كانت تفعل هذه الدول العربية بعدما أظهر العرب عجزهم عن إدخال كسرة خبز للفلسطينيين في غزة؟

على أي حال، فقد أظهرت العدوانية "الإسرائيلية" المنفلتة في الإقليم، في عدوانها على إيران، ولبنان، وتجدّد احتلالها لمساحات في لبنان، وتمدّدها الاحتلالي في سوريا، وسعيها إلى فرض وصايتها الأمنية والسياسية والاجتماعية على الجنوب السوري، وما أظهرته من قدرة مدعومة من الولايات المتحدة والإقليم المستخذي لها على التلاعب بالتوازنات السورية... أظهر هذا كله أن "إسرائيل" خطر مباشر على كل عربي في بيته، والعقبة الأكثر جدية أمام مشاريع التنمية، وتطلعات استكمال التحرر والاستقلال الوطني في المنطقة. وقد عزز ذلك استعادة اليمين "الإسرائيلي"، لا سيما التيار الديني القومي منه، لأيديولوجيته التوسعية الصريحة، وبحيث لا تكون "الاتفاقيات الإبراهيمية" إلا نسخة حديثة تغني عن التوسع الاحتلالي المباشر، وذلك بتحويلها "إسرائيل" لا إلى قوة مهيمنة في المنطقة، بل إلى قوة إمبراطورية فيها.

إن فلسطين بهذه الاعتبارات هي قضية مركزية للعرب، بالاعتبار المادي الصرف، وليس فقط بالاعتبارات التاريخية التأسيسية، أو بالاعتبارات الأخلاقية والثقافية. ليس ذلك فقط لما أظهرته "إسرائيل" من عدوانية توسعية، وإرادة هيمنة لحوحة، وقدرة فائقة على التلاعب بالتوازنات الإقليمية، أو التوازنات الداخلية في البلاد العربية، ولكن أيضاً لأن شرط التنمية والنهضة العربي مشروط بالتخلص من "إسرائيل" بوصفها حالة استعمارية معيقة، لا سيما وأن النهضة، بمعناها المادي والاقتصادي، تتطلّب، بالضرورة، تكاملاً بين مصر ومنطقة الهلال الخصيب، وذلك لأخذ موقع فعّال ومؤثّر على المستوى العالمي، وجسر الفجوة مع الغرب الاستعماري، ومع بقية القوى التي تمكّنت من تجاوز تخلفها نحو نهوض واضح وفعّال.

إن هذا الفهم للحالة الاستعمارية "الإسرائيلية" يستعيد طبيعة هذه الحالة من حيث الأهداف المؤسّسة لها، لأنها قامت على لحظة تفوّق غربي كاسح، بدأ مع الحرب العالمية الأولى، لتستمر "إسرائيل" بالرغم من كل التحولات الدولية، بما في ذلك التي حصلت في المجال الغربي، في قلب الاهتمام والرعاية الغربية، ولاسيما مع الولايات المتحدة الأمريكية، القوة الأكثر هيمنة في التاريخ البشري. لقد جعل ذلك كله المشكلة العربية-الإسلامية مع

"إسرائيل" لا مشكلة عسكرية فحسب، بل مشكلة عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية وحضارية، تُهدد أي إمكان لقيامه عربية-إسلامية من جديد. إن مفاهيم "القيامة"، و"الانبعاث"، و"النهوض"... تأتي اليوم في قلب المشهد، حينما يستخدمها رئيس وزراء كيان الاحتلال بنيامين نتنياهو لوصف حربه الإبادة على غزة، مركّزاً إليها لتغيير الشرق الأوسط كما يقول. ولذا، فإن نهضة السكان الأصليين لهذه المنطقة وقيامه قواهم التحررية والاستقلالية تتعارض بالضرورة مع القيامه "الإسرائيلية".

لا يتوقّف الأمر، والحالة هذه، على العرب والمسلمين، فاتصال "إسرائيل" عضواً بسياسات الهيمنة الغربية على العالم، وكونها الذراع الإمبراطوري الأكثر استثنائية للإمبراطورية الأمريكية، يفترض به أن يوفر أرضية لتحالفات عالمية على المستوى السياسي، تكون فيها فلسطين العنصر الكاشف لأهمية هذه التحالفات، وذلك علاوة على ارتباط "إسرائيل" بسياسات الهيمنة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وكونها جزءاً مهماً من إدارة الرأسمالية لحروبها العالمية، ما يجعل الفلسطيني مرآة لكل مظلوم ومنهوب ومنتَهك في العالم، خاصة في الجنوب منه.

إن فلسطين هي الدالّ الأهم والأكثر وضوحاً وحدّة على الاختلال العالمي، الاختلال السياسي والاقتصادي، والاختلال الثقافي والقيمي، وذلك من اللحظة التأسيسية حينما شرد الشعب الفلسطيني، صاحب الأصلي لفلسطين، ليقام مكانه كيان جامع لشعب جرى اصطناعه على أساس مقولة أسطورية، بنحو مهين للعقل الإنساني وللضمير البشري. لقد كانت إقامة "إسرائيل" إهانة صريحة ومعلنة للبشرية، ونقيضاً للكرامة الأكاديمية، وهو ما يجعل القضية الفلسطينية القضية الأكثر وضوحاً في عدالتها، ومعياراً دقيقاً لأحوال العالم، ما يؤهلها لأن تكون قضية مركزية للعالم كله، وفي القلب منه فقراؤه ومستضعفوه ومنهوبوه، لأن عدالتها الصارخة، وموقعها من سياسات الهيمنة الرأسمالية الغربية العالمية، يجعلها العقدة الجامعة لهؤلاء المستضعفين في العالم، لأن إعادة التوازن للعالم لا يكون إلا بحلّ القضية الفلسطينية، وهو أمر يعني بالضرورة تقويض طغيان المهيمنين من المستكبرين العالميين